

ملاحم من علم التاريخ في الإسلام المبكر

د. الصادق الخوني
جامعة الزيتونة (تونس)

مقدمة

قبل الاهتمام بالحركة التاريخية في الإسلام من حيث العوامل التي أثّرت فيها والمميزات التي اختصّت بها، يجدر بنا أن نلقي نظرة على ما كان سائدا في شبه الجزيرة العربية أولا وخارجها ثانيا حتى يتبين البديل الذي قدّمه الإسلام، وأفرزه المجتمع الإسلامي بعد أن اتسعت حدود الإسلام واعتنقته شعوب مختلفة في حضارتها ولغاتها ودرجة وعيها التاريخي.

I. التاريخ في الفترة السابقة لبعثة الرسول

كان التاريخ في البيئة العربية قبل الإسلام يعنى بتسجيل الذكر الطيّب، والاهتمام بالمفاخر، وإبراز الدور الذي يقوم به القادة والقبائل والدول على نطاق مساحة معينة.

فتاريخ شمال شبه الجزيرة العربية كان يروى شفويا ويتناقله أفراد القبيلة، وقد يلقي في ما يعرف بالمنتدي، ويقع التذكير به باستمرار وخاصة ما فيه من مفاخر وأيام، وكثيرا ما قدّم محلي بالشعر⁽¹⁾.

(1) الدوري عبد العزيز، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960، ص 16-17.

- روزنثال فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت- دمشق، 1403هـ/ 1983م، ص 33.

ومن الثَّابت أنَّ العرب في الجاهليَّة كانت لهم اتِّصالات بالشعوب المجاورة في مناسبات محدودة (1) وعلى نطاق ضيق، أمَّا جُلُّ اهتمامهم فقد انصبَّ على القبيلة التي هي الوطن الضيق والفسيح بالنسبة إلى المنتمين إليها، وهو الأم التي يقدِّم لها الفرد آيات الولاء والعرفان باستمرار. إذ أنَّه لا سبيل إلى أن يعيش الفرد بعيدا عنها وإلاَّ عدَّ غريبا وتعرَّضت حياته للخطر ولم يجد من يأخذ بثأره (2). ولم يعرف عرب الشَّمال نقطة موعلة في القدم يبدؤون بها تسجيل الأحداث، وإنَّما جعلوا البداية في حدث بارز ظرفي (3) أو في شخصيَّة أثَّرت في مجريات الأحداث ثمَّ لا يلبثون بعد تقادم العهد أن يتحوَّلوا عنها إلى بدايات جديدة.

أمَّا عرب الجنوب - أي عرب اليمن - الذين عرفوا حضارة استقرار وتكوين دول من معينيَّة وسبئيَّة وقبانيَّة وحميريَّة، واعتنقوا ديانات وثنيَّة وسماويَّة، فقد دوَّنوا أحداثهم بخطِّهم المسند وعلى مواد مختلفة وسجَّلوا دور القائد في تحقيق المنجزات، وقيادة المعارك، وخدمة المعابد ورعايتها (4). ولم يعرف عرب الجنوب بدورهم في بادئ أمرهم نقطة قارَّة تكون هي المنطلق في تسجيل الأحداث، غير أنَّهم قطعوا في النهاية شوطا في هذا المضمار عندما جعلوا لهم سنة 115 ق.م نقطة بداية قارَّة (5) مما يكشف عن وضوح في رؤيتهم التاريخيَّة (6).

(2) حتي فيليب، تاريخ العرب المطول، دار الكشَّاف للنشر، طبعة رابعة، 1965، ج1، ص 38 وما بعدها.

- وينكر ابن هشام، سيرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلَّم، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي (دون تاريخ)، ج1، ص320 (عند الحديث عن النضر بن الحارث) : « وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، فكان إذا جلس رسول الله مجلسا فذكر فيه بالله وحذر قومه خلفه في مجلسه إذا قام ثمَّ قال : "أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه فلهمَّ إليَّ وأنا أحدثكم..." »

(2) مرجع سابق، 33/1-35.

(3) الدوري وروزنثال/ المرجعان السابقان نفسيهما.

(4) الدوري، المرجع السابق نفسه، روزنثال، المرجع السابق نفسه.

(5) نفس المرجع.

(6) عن الرُّوِّيا التاريخيَّة عند عرب الجنوب، أنظر إسماعيل محمود، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي : محاولة تنظير، دار الثقافة، الدَّار البيضاء، 1980، ج 1، ص 231.

نستخلص إذن أنه قد وجد في المنطقتين اهتمام بالماضي غطت إحداهما أحداث القبيلة وتعضبت لها بشكل ضيق، واعتمدت في ذلك منهجية الرواية الشفوية الخالية من الضوابط، والفاقة للموضوعية، ولنقطة تبدأ بها الأحداث وتستمر في خط مستقيم إلى الأمام. هذه المنهجية التي لا تقدم إلا تاريخاً مفككاً مشوشاً يغلب عليه التعصب وتعرض أجزاءه للنسيان والإضافات عبر الزمن.

وفي الجنوب الذي كان أكثر تقدماً سجلت أحداث الماضي في مجال أرحب من مجال القبيلة هو مجال الدولة الحاكمة، ولكن مع ذلك بقي كنهه في الشمال مفتقراً إلى الامتداد والبعد الزمني والربط بين أجزائه.

أما الشعوب المجاورة وخاصة الإغريق والرومان، فهؤلاء أنجزوا حضارة أكثر تقدماً مقارنة بمعاصريهم. وظهر من بينهم مؤرخون سجلوا كتابة أحداث بلدانهم وبعض الشعوب المجاورة لهم. واشتهروا إلى حد ما بالاطلاع والدقة والأسلوب المقبول، يذكر كأمثلة عنهم في بلاد اليونان : هيرودوت (ت 420 ق.م) وبوليبيوس (ت 120 ق.م)، ومن الرومان : تيت ليف (ت 17م) وغيرهم⁽¹⁾.

II. بديل الدين الإسلامي

ظهر الإسلام في بداية القرن السابع ميلادي مع بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وجاءت مبادئه وأركانه مضمنة في القرآن الكريم مبيّنة وموضحة بالسنة النبوية.

جاء الدين الإسلامي ليقضي على ركن من أركان الجاهلية، وهو التعصب للقبيلة، فعمل على تقويضه وتقديم بديل له هو الانتماء للجماعة الإسلامية كلها⁽²⁾، ورفع من قيمة النظر في ما حولنا للكشف عن حقيقة الوجود والوصول من خلال ذلك إلى الإقرار بخالق الكون. واهتم الإسلام بالعقل وجعل العلم والعلماء في مرتبة تبعث على التقدير والاحترام⁽³⁾ وبوأ العلماء في

(1) حاطوم نور الدين وآخرون، المدخل إلى التاريخ، مطبعة الإنشاء، دمشق، 1964، ص 95 وما بعدها وص 332 وما بعدها

(2) "وإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ" (المؤمنون 52).

(3) لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك} (النساء 162).

المجتمع الجديد المكانة العالية التي كان يحتلّها شعراء الجاهليّة والفاوون من أتباعهم. وقد قيل إنّ هؤلاء الشعراء ورثوا قوّة جنونيّة لا تكشفها العامّة.

ولم ينظر الإسلام إلى الماضي بمنظار ضيق في المساحة والزمن، ورنّا بنظره بعيدا إلى من حوله وإلى حيث يوجد الإنسان، ولم يقصّر الإسلام اهتمامه بماضي الجماعة المسلمة أو سكّان شبه الجزيرة العربيّة فحسب، وإنّما اعتنى بشعوب مختلفة وأنماط حضاريّة متنوّعة⁽¹⁾. وسعى إلى أن يستخلص من خلال ذلك ما يدعّم به مبادئه ويشدّ به أزر جماعته التي كانت تعيش في ظروف صعبة⁽²⁾.

وهكذا فكّ الدين الإسلامي التاريخ من قيود المكان الضيق والجماعة المحدودة، وحمله إلى مكان فسيح، إلى العالم كلّ ونقله من الزمن المحدّد بحياة القبيلة إلى الزمن البعيد الضارب في الماضي والممتدّ في الحاضر والمتقدّم إلى المستقبل⁽³⁾.

III. تدوين التاريخ عند المسلمين

يمكن القول إنّ فترة انتقاليّة حلّت مع الدّعوة إلى الإسلام قلبت فيها صفحة الاهتمامات القبليّة وحلّ محلّها الانقلاب على حفظ القرآن الكريم وتدبّره، إلى جانب الانبهار بشخصيّة الرّسول صلى الله عليه وسلّم التي ملأت وجدان الناس في شبه الجزيرة العربيّة، كما شغلّتهم ظروف الصّراع بين الإسلام والمعادين له الأمر الذي حال دون مدّ البصر إلى أبعد من ذلك.

إنّ الانطلاق في تسجيل الأحداث التاريخيّة بعد هذه المرحلة الحاسمة والانتقاليّة تمحورت حول شخصيّة الرّسول. فوجود الإسلام واتّساع مساحته ورسوخه كان

(1) يظهر ذلك في المواضيع التي طرقها القصص القرآني.

(2) ولعلّه غرض من أغراض القصص القرآني.

(3) { غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أُنْتِي الْأَرْضَ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ } (الرّوم 2-3).

ويذكر في هذا الصدد قصّة سلمان الفارسي عندما اشتدّ عليه المكان أثناء حفر الخندق عشية غزوة الخندق، وجاء الرّسول لمساعدته فرأى برقّة تلمع تحت المعول، وتكرّر ذلك ثلاث مرّات، وعندما سأل سلمان عن السرّ أجاب الرّسول بما معناه: (أمّا الأولى فهي: فتح اليمن، والثانيّة فتح الشام، والثالثة فتح المشرق). وقد تحقّق كل هذا كما نعلم. أنظر ابن هشام، السيرة، مرجع سابق، 234/3-235.

للرجل الذي اختاره الله لتبليغ الرّسالة دوره الهام في ذلك. فحياته والمجهودات التي بذلها والنضال الذي خاضه والصمود والإصرار اللذان أظهرهما بدعم وتوفيق من الله من أجل نشر الدّعوة وتكوين جماعة منظّمة والعمل على البدء في إرساء دولة، جعلت منه الشخصية الفدّة وراء رسالة الإسلام وهذا الانقلاب الذي حصل بها. فمن المنطق أن الرّسول يستحقّ أن يعرف قبل غيره.

وقد حفظت هذه السيرة النبويّة شفويّاً عندما أخذ عدد من أبناء الصّحابة يسألون آباءهم أو من صحب الرّسول عن حياته وأخباره، فولع النّاس بالسيرة وكثر القصاصون الذين يتلونّها على مسامع النّاس في المساجد وفي المجالس⁽¹⁾.

وكان الحكماء في صدر الإسلام يسألون العلماء عن غزوة أو مسألة وردت في آية قرآنية وتتعلّق بحياة الرّسول صلى الله عليه وسلّم، فيتحدّث العالم بما يعلم مسنداً الحديث إلى من أفاده بذلك من الصّحابة. ثمّ تقدّم الاهتمام بالسيرة خطوة إذ دوّن بعض هؤلاء الحفاظ وكلّمهم من التّابعين ما ورثوه رواية عن أسلافهم من الصّحابة، وكان البدء بذلك هو أبان بن عثمان بن عفّان (ت بين 95هـ و105هـ/713-723م)⁽²⁾.

كما أدّى الاهتمام بتدوين الأحاديث بشكل رسمي منذ نهاية القرن الأوّل إلى توفّر مادّة تاريخيّة غنيّة تتعلّق بحياة الرّسول. ومن هذه الأحاديث المبوبة والمنسّقة وقع استخلاص تاريخ الرّسول من طرف المؤرّخين. حيث لم يجدوا عناء في ذلك، إذ أنّ المحدثين مهّدوا الطريق وعبّدوها حتّى أنّهم جمعوا أحياناً أخبار الرّسول وسيرته في باب دعي باب المغازي والسير. وقد اعتنى مؤرّخو السيرة بهذه الأحاديث المذكورة وبقيت حاملة لعنوان مستقل في كتب الصحابة والسنن والمسانيد (كتاب المغازي في مسند الإمام أحمد بن حنبل : ت 240هـ، وكتاب المغازي في صحيح البخاري : ت 256هـ، كتاب الجهاد والسير في

(1) كحالة عمر رضا، التاريخ والجغرافية في العصور الإسلاميّة، المطبعة التعاونيّة، دمشق، 1972، ص 29 وما بعدها.

- هوروفيتش يوسف، المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، طبعة أولى، 1369 هـ/1949م، ص 1 وما بعدها.

(2) ابن الديبع الشيباني، حدائق عبد الله الأنصاري، طبع بقطر، 1982، ج 1، [م6-م7].

صحيح مسلم : ت 261هـ - وغيرهم⁽¹⁾. وهكذا ظهر التاريخ والسيرة النبوية من ضلع الحديث في مرحلة تاريخية على أقل تقدير. إن بداية تسجيل الخبر والمحافظة عليه ليتناقله الناس في المرحلة الإسلامية التي تلت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، كانت محدودة وشفوية في الغالب، ولم يبدأ تدوينه بشكل رسمي وواضح إلا في العصر الأموي. ويعود هذا التأخير إلى أسباب تتمثل في وجود كتاب منزل مقدس ومطول احتوى على كل شيء، وشدهم إليه ببلاغته وما فيه من أفكار جديدة، إلى جانب الفتوحات التي يخوضونها وعدم استقرار المجتمع الجديد وعدم تفاعله مع الوضع. إن كل هذه الظروف لا تسمح بالانكباب على العلم وتدوين الأخبار السابقة أو المعاصرة.

أضف إلى ذلك أن المسلمين الأوائل جلهم من العرب وهؤلاء أميون بنسبة لا يستهان بها وينتمون إلى بيئة صحراوية طليقة جعلت ذاكرتهم قوية فأغنتهم عن التسجيل. إلى جانب خشيتهم من أن يختلط عليهم تدوين الأخبار بما في كتاب الله أو يشغلهم عنه. وقد يكون من عوامل هذا التأخير وجود أحاديث شريفة تنهى عن الكتابة ورواج فكرة أن الإسلام يجب ما قبله⁽²⁾ إلى جانب ندرة وسائل الكتابة.

إن بدايات التدوين كانت في العصر الأموي وأغلب من قام بها كان إلى حد ما من أصول عربية في البداية فحسب، ولذلك كانت بسيطة اقتصر فيها عمل المؤلف على الجمع بدون تنظيم. وإلى جانب نقائص هذا التدوين فإن ما سجل في العصر الأموي ضاع أغلبه وأخذ بعد ذلك عن طريق الرواية وأدمج في الكتب التي ألّفت في العصور التالية (الطبري وغيره). وعلى إثر استقرار المجتمع الإسلامي الجديد بعد موجة الفتوحات، وجد بين أفرادها من ينتمي إلى حضارة قديمة وكتب منظمة يحتوى الواحد منها على مسألة محددة إلى حد ما، فادخلوا على اللغة العربية نظام تأليف الكتب بجمع ما يتصل بالموضوع الواحد في كتاب.

(1) حاطوم نور الدين وآخرون، المدخل، مرجع سابق، ص 187.

(2) آل مبارك أحمد عبد العزيز، بحث: "تأثير التدوين والنهي عنه وعدمه - موضوع المنهج العلمي في تدوين الحديث النبوي"، مجلة الهلال، مصر، أغسطس، 1980.

- إلا أن المرجح هو اعتبار عدد من الباحثين أن حديث النهي عن الكتابة منسوخ.

وقد جعلت نقطة بارزة تكون منطلقاً لتأريخ الأحداث وهو ما قبل البعثة والهجرة إلى المدينة وما تلاها من أخبار.

ولا شك أنّ كتابة التاريخ أو تسجيل الأحداث لهذا الدّين وما يحمل من مبادئ - عندما يحين الوقت المناسب - شيء منطقي وضروري، كما أن الحضارات القديمة التي كانت سائدة والتي اعتنق أصحابها الإسلام ستعطي هذه الحركة بعضاً من تجاربها.

وفي أثناء ذلك استجدّت أحداث في التاريخ الإسلامي النّامي والمتغيّر أفرزت بشكل عفوي أو متعمد اهتماماً بالكتابة في فرع معيّن من فروع التاريخ. فهناك الفتوحات والمجتمعات الجديدة وما تتطلبه من تشاريع لتسّاس على ضوئها على اختلافها من بلد إلى آخر. وبعد الفتوحات الأولى والحاسمة تسرّبت إلى السّاحة من جديد أخبار الجاهليّة مصحوبة بالأنساب، وقد عمل الإسلام على القضاء عليها من قبل. ثم حدثت الفتنة الكبرى التي عرفها المجتمع الإسلامي في مرحلة من تاريخه في جزء من حياة الخليفة عثمان بن عفّان رضي الله عنه. واستمرّت بعد ذلك بشكل دمويّ ومؤسف كما شارك في أحداثها مجموعة من النّفاة مثل الزّبير وطلحة وعائشة رضي الله عنهم. ثمّ هناك القبائل العربيّة التي عادت إلى التّحرك من جديد فارضة لونها كما يقال. وهناك الصراع بين اليمنيّة والقيسيّة في العهد الأموي، وما تذكره بعض المراجع حول تعصّب العرب ضدّ الموالي الذي لم يكن على نطاق واسع ولعلّه تم في حيّز مكاني وزماني محدودين لعلّه بسبب انحياز الفرس للعلويين أعداء الأمويين. وقد سكت الحكام الأمويون على ذلك لبعض الوقت. لكن هذه الظاهرة لم تستمر طويلاً، فقد طرأ ما جعل المجتمع الأموي يهمل هذا العنصر لينشغل بطوارئ وتطوّرات جديدة فيها الولاء والصّراعات التي أصبحت بين من هم من أصول عربيّة أنفسهم وذلك عشية سقوط الدّولة الأمويّة⁽¹⁾. وظهرت كنتيجة لكلّ هذه الصّراعات تآليف في المدح والتّلب والتّفاخر بالأنساب.

(1) للمزيد من المعلومات حول ما يذكر من تعصّب العرب ضدّ الموالي : أنظر أطروحة دكتورا الدّولة التي أعدّها : عمّار العشي بعنوان : "دراسة في جذور الفتنة وسقوط الدّولة الأمويّة" المجلد الثاني، ص 958 وما بعدها التي عنوان لها " بنهاية الدّولة الأمويّة بين القدامي والمحدثين"، نوقشت الأطروحة بكلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، 9 أفريل بتونس، خلال السنة الجامعيّة 2007-2008.

كما ظهرت فرق إسلامية مختلفة المشارب استندت بالنصوص القرآنية وأولتها لتدعيم أطروحتها واستجذبت بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لإقناع المخالفين وإن أدى بها الأمر إلى الوضع والكذب وتقويل الرسول ما لم يقل⁽¹⁾. ونتج عن ذلك أن تصدّى عدد من العلماء إلى نقد هذه الأحاديث بتتبع تراجم روايتها لتمييز من لم يعرف بالكذب ولم ينحرف في يوم ما وكان مسلماً ثقة لا يقول إلا الصدق، إلى جانب التحري في متن الحديث بوسائل مختلفة.

وأدى الانقسام الذي عرفه العالم الإسلامي بداية من العهد العباسي الثاني - والذي ظهرت على إثره الدويلات والإمارات - إلى ظهور التواريخ المحلية للمدن والأشخاص وما يتبعه من اهتمام بطبقات وتراجم مناطق معينة.

على كل حال ومهما كانت نتائج هذا التمزق الذي شمل العالم الإسلامي من الناحيتين السياسية والاقتصادية، فقد استفاد التاريخ من ذلك بأن أصبحت له ثروة هائلة من المادة التاريخية ومن التأليف المختلفة في شتى أنواع المعرفة. فقد أحصى صاحب كشف الظنون ما ألف فيها خلال الألف الأولى للهجرة فوجدها ألفاً وثلاثمائة كتاب⁽²⁾.

هذه الثروة من التأليف التي ذكرها حاجي خليفة وغيره، ما هي العوامل التي كانت وراء إثرائها ؟

IV. علم التاريخ في الإسلام : عوامل النشأة والتطور

إن الحركة التاريخية الهائلة التي عرفها العالم الإسلامي تعود إلى عوامل بررت وجودها وازدهارها ورافقتها ودعمتها في مسيرتها الطويلة⁽³⁾. ويمكن أن نستعرض بعض هذه العوامل :

1 - تاريخية الإسلام⁽⁴⁾ : في هذا الموضوع يمكن أن نبرز العناصر التالية التي جاءت مع العقيدة الإسلامية ودعمت الاهتمام بالماضي :

(1) أمين أحمد، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1979، ص 24 وما بعدها.

(2) خليفة حاجي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، 1982، ج 1، ص 271.

(3) شاكِر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون : دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، دار العلم للملايين، 1979، ج 1، ص 57.

(4) المرجع السابق نفسه.

- إسماعيل محمود، سوسيولوجيا (مرجع سابق)، 238/1 وما بعدها.

أ - العقيدة الإسلامية ضاربة الجذور في الماضي ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ هو سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴿⁽¹⁾﴾. والوحدانية فطرية وأزلية الوجود في النفس الإنسانية وما الحنيفية واليهودية والمسيحية والإسلام سوى دين واحد متصل الحلقات.

ب - أعطت العقيدة الإسلامية تصوّرًا تاريخيًا واضحًا للكون وعادت معه إلى الوراء (أي إلى الماضي) منذ خلق وصاحبه حتى يوم القيامة، وربطت بين المبدأ والنهاية بحلقات الأنبياء. وأعطت صورة واضحة للبداية والنهاية وجعلت ما بينهما فترة خلافة الإنسان الذي يعمل ويتحرك في حياة فيها الإغراء والغوايات، وتتطلب بذل الجهد والصراع ضد قوى الشرّ وتبقى هذه الحياة الدنيا مدخلا للآخرة يتوقف على ما يقدم الإنسان في هذه الحياة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ ⁽²⁾، ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ⁽³⁾.

ج - الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء، وكل شيء يتم بعلمه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ⁽⁴⁾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ⁽⁵⁾.

فالقدرة الإلهية هي التي تحرك الأحداث، والاطلاع على هذا الماضي هو دراسة حضور القدرة الإلهية في تسيير الأحداث فيه وفق سنن ونواميس.

د - الإنسانية كلّها واحدة والإسلام يخاطب البشر جميعاً، وهذا يوحي بالإيمان بالترابط الجذري في الصورة الكونية وبالتالي بعالمية الإسلام ⁽⁶⁾. وتوحي هذه النظرية بالترابط البشري ومن ذلك التعرف على الآخرين وعلى

(1) سورة الحج، الآية 78.

(2) سورة الزلزلة، الأيتان 7 و8.

(3) سورة النساء، الآية 162.

(4) سورة الصافات، الآية 96.

(5) سورة النجم، الآية 31 وصورة البقرة، الآية 210.

(6) الذوري عبد العزيز، بحث... (مرجع سابق)، ص 18.

أخبارهم، حيث تكرر في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ و﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴾. ومن ذلك الآية ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (1).

ومع هيمنة القدرة الإلهية فإن العقيدة الإسلامية لم تجرد هذا الإنسان من التفكير والتخطيط وبذل الجهد وإيجاد المسببات، ولم تجعله ريشة في مهبّ رياح عاصفة. ولم تضرب صفحا عن تاريخ الشعوب السابقة، ولم تجعلها في عداد الشيطان كما رأى مفكر الكنيسة المسيحية سانت أوغسطين (ت 430م) (2).

هـ - جاءت العقيدة الإسلامية رافضة للتعصّب للقبيلة ولقصص الأيام، وأخرجت التاريخ من الإطار الضيق بالنسبة إلى الإنسان والمكان كما يظهر من عالمية الإسلام التي بينها سابقا، وربطت الماضي البعيد بسلسلة الأنبياء وأعطته بعدا جديدا على مستوى الهدف من حركة التاريخ.

و - انطوى القرآن على مجموعة من الحقائق التاريخية ومع اختصارها واكتفائها بالإشارة واللحمة - لأنها قدّمت للعظة والاعتبار ولغرض محدّد - فقد حرّكت الرغبة في معرفة أحداث هذا القصص وفتحت باب الاهتمام بالماضي (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) (3). وقد ترفع القصص القرآني - متمشيا في ذلك مع نسقه وبلاغته وقوة تأثيره - عن الدخول في تفاصيل لأحداث لا تخدم هدفه المحدّد وهو خدمة الحاضر بما فيه من جماعة إسلامية تعيش نضالا مريرا من أجل الدّعوة إلى الإسلام هي في أمسّ الحاجة إلى شدّ أزرها حتى لا تستكين أو تتوقّف. ومما يريد القصص إثباته هو أن الحق هو المنتصر في النهاية، ويجد إعانته من الله، وإن كانت الجولة الأولى في هذا النوع من الصّراع تعود إلى صاحب الجاه والمال. إنّ هذه الحقائق الدّامغة نعثر عليها عندما نعود إلى الماضي لتصفّحه وبالتالي تكون العقيدة الإسلامية قد فتحت الباب لنتهم بالماضي ونشتغل بالتاريخ.

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

(2) هرنشو، علم التاريخ، ترجمة وتعليق العبادي، القاهرة، 1944، ص 27-28.

- أنظر أحمد فتحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، 1975، ص 166 وما بعدها.

(3) سورة يوسف، الآية 3.

2 - شعور المسلمين بأنّ الإسلام أعطى الإنسانية مساراً جديداً ودخل بها في طور مختلف، وهذا الحدث ومعه تجارب الأمة الإسلامية يستحقّ التسجيل والمقارنة مع تجارب الأمم الأخرى والتي بادت (1).

وقد اشترك في هذا الشعور أبناء الشعوب الذين انتشر بينهم الإسلام والذين فوجئوا به وشدهم إليه وقضى على دولهم الكبرى، فتقصّي الأخبار للمقارنة والبحث عن أسباب القوة والضعف من أهمّ عوامل إثراء المادة التاريخية.

3 - التجارب الإنسانية هامة في التوجه إلى السلوك الطيّب والملائم للمشاكل المطروحة، ومستودع هذه التجارب الهادية هي الأحداث التاريخية (2).

4 - العودة إلى الماضي عامل تربوي يقوّي انتماء الفرد للأرض والمجموعة، وكلما كان هذا الماضي حافلاً بالأمجاد والانتصارات اعتزّ الإنسان به وتلّف لمعرفة المزيد عنه، والتاريخ الإسلامي لا يخلو من ذلك. لهذا توجه إليه المسلمون للإطلاع والانتفاع، وقد اشترك في ذلك الأفراد العاديون والأغنياء والحكّام. سنرى اهتمام هؤلاء بالتاريخ وتقريبهم لمن يقدّم لهم ما ينفعهم. [معاوية ابن أبي سفيان (ت 60هـ/680 م)، خالد بن عبد الله القسري (ت 126هـ/743 م)، أبو جعفر المنصور (ت 158هـ/775 م)].

5 - تفسير القرآن ودراسة السّنة : لقد دعت الحاجة عند تفسير القرآن الكريم إلى معرفة أسباب النزول وهذه المسألة مرتبطة بسيرة الرّسول صلي الله عليه وسلّم التي لا بدّ حينئذ من العودة إليها.

وهذا يستدعي بدوره الاهتمام بأحاديث الرّسول وجمعها ونقدها حسب طرق معيّنة. وهكذا تجمّعت جملة من الأحاديث التي يمكن أن نستخرج منها سيرة الرّسول (3). وإن من أغراض هذا العمل أي الاهتمام بأحاديث الرّسول

(1) شاكر مصطفى، التاريخ العربي، مرجع سابق، ج 1، ص 60.

(2) المرجع السابق نفسه.

(3) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج 1، ص 62.

- نصّار حسين، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، منشورات اقرأ، طبعة ثانية، 1980، ص 14-

15.

وأفعاله وتقريراته هو الاهتداء بها والاعتماد عليها في التشريع الإسلامي والنظم الإدارية⁽¹⁾.

كما اشتمل القرآن على إشارات وأخبار لأمم سابقة وأنبياء وأحداث، ومن أجل التعرف عليها وقع الالتجاء إلى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لاستنتاج ذلك منها. كما وقعت الاستعانة ببعض أهل الكتاب الذين دخلوا الإسلام ككعب الأحبار (ت 32هـ/652م) ووهب بن منبه (ت 114هـ/732م). وقد ضمّ المسلمون ما أخذوه عن أهل الكتاب إلى التفسير وهو ما اصطلاح عليه بالإسرائيليات.

وهكذا وبسبب الاهتمام بالقران والسنة توفرت مادة تاريخية تتعلق إحداها بسيرة الرسول والأخرى بأخبار أُمم وأنبياء وأحداث عرفتھا العصور السابقة لظهور الإسلام.

6 - النظام المالي والتشريع التي وضعها الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب والمتمثلة في ديوان العطاء والخراج. إنّ هذا العنصر ساعد على إثراء المادة التاريخية⁽²⁾، إذ أن العطاء الذي خصّص للمسلمين كان يختلف حسب الأسبقية في الإسلام والدّود عنه. وقد ساعد هذا الموضوع على الاهتمام بالأنساب وبكتب الطبقات والتراجم فيما بعد، ولو أن الأنساب دعت إليها أيضا الصّراعات المختلفة، قبلية وغيرها. وتدخل التراجم في إطار تسجيل أصحاب الذكر الطيّب وتعتبر امتدادا لنقد رجال الحديث⁽³⁾.

كما أن الحكّام والمشرّعين كانوا في حاجة إلى معرفة الطريقة التي فتح بها المسلمون البلدان المختلفة، خاصة كيفية حصول ذلك صلحا أو عنوة لما

(1) سالم السيّد عبد العزيز، التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 54.

(2) أمين أحمد، ضحى الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، 1935، ج 2، ص 339.

- نصار، نشأة... (مرجع سابق)، ص 16-17.

- شاكر مصطفى... (مرجع سابق)، ج 1، ص 63.

- حاطوم، المدخل... (مرجع سابق)، ص 179.

- زيدان جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، تعليق ومراجعة حسين مؤنس، دار الهلال (نون تاريخ)، ج 3، ص 99 وج 3، ص 101.

(3) أنظر حول التراجم روزنثال (مرجع سابق)، ص 141 وما بعدها.

يترتب عليه من اختلاف في معاملة سكان البلدان المفتوحة وما يفرض عليها من جزية أو خراج. وهكذا دفعت الحاجة إلى وضع كتب تتعلّق بالفتوحات (1) (فتوح البلدان للبلاندي : ت 279هـ، فتوح الشام للواقدي : ت 207هـ ، فتح مصر والمغرب لابن عبد الحكم : ت 257هـ.)

7 - تشجيع الخلفاء والأمراء المسلمين بصفة عامّة على التدوين وكانت لهم رغبة في الاستماع إلى الأخبار وخاصة الأكثر منهم سياسة ودهاء. فعبيد بن شربة الجرهمي صاحب كتاب الملوك وأخبار الماضين (ت 67هـ/686م) اتصل بمعاوية بن أبي سفيان وروى له أخبار الملوك وسيرهم، وكان هذا الأخير يجلس كلّ مساء لذلك ويأمر بتسجيل ما يسرد على مسامعه من أخبار (2).

وكان عبد الملك بن مروان (ت 86هـ/705م) وابنه الوليد بن عبد الملك (ت 96هـ/710م) وعمر بن عبد العزيز (ت 101هـ/720م) من خلفاء الدولة الأمويّة على علاقة علميّة بعروة بن الزبير (ت 93هـ/643م). وكان هشام بن عبد الملك (ت 125هـ/743م) قد وضع لمحمّد بن شهاب الزّهري (ت 124هـ/742م) كاتبين يكتبان عنه، كما طلب خالد بن عبد الله القسري - أحد ولاة الأمويين الأشداء - من الزّهري أن يكتب له الأنساب والسيرة. وكتب ابن طباطبا المعروف بالطقطقي (ت 709هـ/1309م) " الفخري في الآداب السلطانيّة " لأمير الموصل عزّ الدين ابن إبراهيم الخ...

كما كان لحكّام المسلمين بصفة عامّة رغبة في الإطلاع على أخبار الماضي من أجل الاستفادة منها في حكم البلاد وحلّ ما يعترضهم من مشاكل، ويذكر في هذا الصدد شغف معاوية بالاستماع إلى سير الملوك وأخبار الحروب ومكائدها (3).

(1) شاكر مصطفى، (مرجع سابق)، ج 1، ص 163.

(2) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، 1983، ج 3، ص 31.

- روزنثال، علم التاريخ (مرجع سابق)، فصل " دور التاريخ في تربيّة الأمراء"، ص 71 وما بعدها.
(3) المسعودي، المرجع السابق نفسه.

والجدير بالذكر هنا استعانة أبي جعفر المنصور بالعبر من أخبار الماضي في تصفية أبي مسلم الخراساني (ت 137هـ/755م) الذي كان من قادة الدعوة العباسية والذي أصبح يمهّد للاستحواذ على الحكم. فبعد أن قصّ عليه إسحاق بن مسلم العقيلي قصة سابور ملك الفرس مع وزيره بخراسان استقرّ رأيه على قتل أبي مسلم، ونفّذ ذلك (1).

وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إذا دخل شهر رمضان أحضرت له كتب التاريخ والسّير وقرئت عليه أحوال العالم (2).

لكن عندما استبد الوزراء بأمور الدولة أصبح همّهم منع الخلفاء من مطالعة التاريخ والسّير الجادة حتى لا يتفطنوا إلى تلاعب الوزراء بل كانوا يقدّمون لهم كتباً هزليّة (3). وقد أصبح علم التاريخ من علوم الحكّام والملوك، وكان من الأمثلة الشائعة في فترة ما قولهم "علم الملوك النسب والخبر، وعلم أصحاب الحروب درس كتاب الأيّام والسّير، وعلم التجار الكتابة والحساب" (4).

8 - النزاع السياسي وتنافس الفرق والتيارات في العالم الإسلامي على

اختلاف مظاهره : لقد سجّل هذا النزاع في كثير من الأحيان بوجي من الميول السياسيّة أو الشّيعات أو بناء على إيعاز من أولياء الأمور من أجل النيل من خصومهم (5). فعل الأمويّون ذلك أثناء حكمهم، ولم يبق العلويون مكتوفي الأيدي ونالوا من خصومهم أمويين كانوا أو عباسيين (6). وينكر من المؤرّخين المتشيعين أبو مخنف لوط (ت 157هـ/773م) غير أن كلّ ما كتبه ضاع ولم يبق منه إلّا بعض أخبار عند الطبري (ت 310هـ/922م). ويعدّ سيف بن عمر التميمي (ت 170هـ/786م) من الذين تلمنّوا على علماء من الشيعة وإن كان متأثراً بمواقف قبيلته تميم. ويمكن أن

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، المطبعة العلميّة، 1313هـ، ج 2، ص 155.

- زيدان جرجي (مرجع سابق)، ج 2، ص 98.

(2) زيدان، المرجع السابق نفسه.

(3) زيدان، المرجع السابق نفسه.

(4) روزنثال، علم التاريخ (مرجع سابق)، ص 98.

(5) يذكر في هذا المجال إشارة خالد القسري الوالي الأموي علي الزّهري بأن يكتب له نسب العرب والسيرة ونّبّه أن لا يكتب شيئاً عن علي بن أبي طالب إلا إذا رآه في الجحيم!...

(6) حاطوم، المدخل... (مرجع سابق)، ص 180 - 181.

نظيف إلى المتشيعين أبا الفرج الأصفهاني (ت 356هـ/967م) وابن الطقطقي (ت 709هـ/1309م) ⁽¹⁾.

كما أن النزاع بين الفرس المعتبرين من الموالي والعرب، والذي ظهر في عهد الدولة الأموية، وسكتت عنه هذه لميل الفريق الأول إلى آل البيت، تسبب إلى جانب عوامل أخرى في ظهور حركة "شعوبية" ترفع من شأن الفرس وتحط من شأن العرب وذلك بتشويه تاريخهم وإبراز مثالهم ⁽²⁾. جاء في الفهرست لابن النديم ⁽³⁾ « أن أول من ألف في المثالب كتابا زياد بن أبيه ⁽⁴⁾ فإنه لما ظفر عليه وعلى نسبه عمل ذلك ودفعه إلى ولده وقال : "استظهروا به على العرب فإنهم يكفون عنكم" ».

وتظهر الشعوبية في أعمال علان الشعبي (نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة) ومن كتبه "الميدان في المثالب"، وكذلك ابن المثنى (ت 209هـ/824م) له رسائل في الدفاع عن الموالي وقد عدّ من أساطين الشعوبية.

وإلى جانب ذكر مثالب العرب أنزلت الشعوبية بعض التراث الفارسي - الذي يبرز قيمة الفرس - إلى السوق الفكرية ⁽⁵⁾ مثل خدائنامه (في تاريخ الفرس حتى آخر أيامهم) وإبين نامه (في نظم الفرس وعاداتهم وشرائعهم) نقله إلى العربية ابن المقفع (ت 142هـ/759م). ونقل السريان أخبار قومهم وأخبار اليونان.

وفي إطار الصراع بين التيارات المختلفة كانت ردّة الفعل على الشعوبية من جانب كتّاب من أصل عربي ⁽⁶⁾، حيث انصرفوا نحو دراسة وتسجيل ما له

(1) حاطوم، المدخل (المرجع السابق نفسه).

(2) الدوري عبد العزيز، مقدّمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، 1960، ص 69 وما بعدها؛ و"بحث في نشأة علم التاريخ" لنفس المؤلف (مرجع سابق)، ص 46 وما بعدها.

(3) المرجع السابق نفسه، ص 131.

(4) عن زياد بن أبيه الذي هاجم العرب بالرغم من أنه عربي وعلاقته بأبي سفيان ومعاوية، أنظر مثلا : ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مصر، مطبعة الموسوعات، 1317هـ، ص 101، وانظر حسين نصار، نشأة التدوين (مرجع سابق)، ص 21.

(5) شاعر مصطفى، التاريخ العربي (مرجع سابق)، ج 1، ص 64.

(6) نفس المصدر، ص 64.

علاقة بتاريخ العرب وأدبهم مثل : كتاب "البيان والتبيين" وكتاب "مقاتل فرسان العجم" ردًا على كتاب أبي عبيدة "مقاتل فرسان العرب" (1).

كما وجد تنافس بين المدن الإسلامية وكذلك بين الدول الإسلامية في إبراز أخبارهم والتعريف برجالها، وهكذا أصبح لكل قطر مختصوه في الأخبار. قال ابن النديم (2) "قالت العلماء : أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بالحجاز والسيرة".

وفي كل حالات الصراع والتعصب بين التيارات المذكورة آنفا والتي لم تذكر، كسب التاريخ ثروة تاريخية هامة بالإضافة إلى ما كسب من رواج علمي (3).

9 - الأدب العربي (4) : لقد تعود الشعراء العرب في البيئة العربية قبل الإسلام تضمين قصائدهم الشيء الكثير من أخبار قبائل العرب (معلقة الحارث بن حلزة تبرز لنا الخلاف بين بكر وتغلب في حرب البسوس، زهير بن أبي سلمى يعبر عن ارتيابه لما تم من صلح بين عبس وذبيان بعد حرب داحس والغبراء، عمرو بن كلثوم يمدح قبيلة بني تغلب على العموم وجرهم على الخصوص).

وعند الاهتمام بشعر العرب في القرن الثاني للهجرة، غزا علماء فقه اللغة ميادين رواية القبيلة وذلك للإحاطة بما تبقى من آثار الشعر القديم وإيضاح غوامضه، فأدوا للتاريخ خدمة جليلة إذ جمعوا شتات هذه المجموعة من الأخبار وعنوا بترتيبها وتنسيقها (5). ومن أهم الذين أسهموا في زيادة الثروة التاريخية من المشتغلين بشؤون الأدب يمكن أن نذكر : هشام بن محمد الكلبي (ت 204هـ/819م) وأبا عبيدة (ت 209هـ/824م).

(1) نفس المصدر، ص 64.

(2) ابن النديم، الفهرست، دار المعارف، بيروت، 1978، المكتبة التجارية، مصر، 1948، ص 137.

(3) شاكر مصطفى، التاريخ... (مرجع سابق)، ج 1، ص 68.

(4) الدوري، بحث... (مرجع سابق)، ص 44.

- حاطوم، المدخل... (مرجع سابق)، ص 182.

- شاكر، التاريخ... (مرجع سابق)، ج 1، ص 66.

(5) حاطوم، المدخل... (مرجع سابق)، ص 182 - 183.

وتظهر لنا الصلة الوثيقة بين الأدب والتاريخ في بعض أمّهات الكتب (1)، مثل الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت 356هـ)، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وبيتمة الدهر للثعالبي، والكامل في اللغة للمبرد.

10 - الرغبة العلمية : لقد توجّه أغلب المؤرّخين المسلمين إلى الكتابة وبهدف خدمة العلم والزيادة في ثروته، فالإسلام شجّع على العلم وقدر العلماء. وقد ساعدهم في ذلك ازدهار الذي عرفته الثقافة الإسلامية بصفة عامّة، وخاصة بداية من العهد العبّاسي. كما رأوا في هذا التّأليف : إبقاء الذكر أي حتى لا يفوتوا على الأجيال القادمة الاطلاع على مآثر أمّتهم الإسلامية لتكون لهم عبرة واعتزازا " من ورّخ مؤمنا فكأنما أحياه، ومن قرأ تاريخه فكأنما زاره، ومن أحياه فكأنما أحيأ الناس جميعا" (2). ويقول عبد المنعم ماجد في تقدير التّأليف التاريخي (3) " وقد اعتبر إنفاق الملوك والأغنياء على المصانع والحصون لا يعادل إبقاء الذكر في التاريخ مما يزيد من فضل هذا العلم".

وتظهر الرغبة العلميّة الخالصة فيما يلاقيه العلماء المسلمون من مؤرّخين وغيرهم في التّثقل والأنعاب لمعاينة مسرح الأحداث وجمع الأخبار والتّثبت من بعضها الآخر.

فالواقدي والمحدثون بصفة عامّة جمعوا معلوماتهم من خلال التّثقل، كما أن اليعقوبي والمسعودي لم يكونا مؤرّخين فحسب بل كانا جغرافيين حصلا على معارفهما الجغرافيّة من الرّحلات البعيدة (4).

11 - ازدهار صناعة الورق داخل العالم الإسلامي - بعد أن كان يستورد من الصّين - كان عاملا مهما في تسهيل نقل الحدث من الذاكرة إلى الشكل المكتوب (5). فكان بناء مصانع للورق في عدد من المدن في العهد

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1970، ص 28.

(3) ماجد عبد المنعم، مقدّمة لدراسة التاريخ الإسلامي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1964، ص 39.

(4) جيب، علم التاريخ عند المسلمين، ضمن دائرة المعارف الإسلامية (دون تاريخ) المجلد التاسع، دار الشعب، القاهرة، ص 132.

(5) شاكر مصطفى، التاريخ... (مرجع سابق)، ج 1، ص 69-70.

العبّاسي⁽¹⁾ والاستغناء عن مواد الكتابة القديمة من حجارة وعظام وسعف النخيل عملاً ثورياً ساهم في تسهيل عملية الكتابة وتقريب الكتاب من القارئ وتثبيت الفكر ونشرها. إلا أن إلغاء دور الرّواة بانتشار الورق سوف يورث الشك فيما دون.

وإلى جانب ما ذكر آنفا ذكر البعض ولعلهم مصيبيون في ذلك⁽²⁾ أن المسلمين اضطروا إلى الكتابة على نطاق واسع بسبب تكاثر المعلومات التاريخية إلى حدّ جعل الذاكرة حتى القويّة منها تتوء تحت أعبائها. كما أن تعريب الدّواوين في عهد عبد الملك بن مروان وإحداث وظيفة "الكاتب" الذي أصبحت له معلومات غزيرة تبوّته للاشتغال بالتأريخ بسبب تدريبه على معالجة الكتابة في الموضوعات المختلفة⁽³⁾.

٧. مميّزات علم التاريخ الإسلامي عند المسلمين

بعد استعراضنا لظروف نشأة وتطوّر علم التاريخ الإسلامي عند العرب والمسلمين، سنتناول مميّزات هذا العلم :

1 - أصالة التأريخ الإسلامي : لقد بدأ التأريخ الإسلامي واستمرّ لمدّة أصيلاً ومستقلاً حيث اقتبس العلماء المسلمون الأوائل في مستهلّ النهضة العلميّة أشياء كثيرة في شتّى أنواع المعرفة من فلسفة وطبّ وفلك وهندسة عن شعوب الحضارات التي كانت سائدة قبل الإسلام من هنود وفرس وإغريق ثمّ طوّروها وتفوّقوا فيها على معلّميهم. وهذا الاطلاع تمّ بالترجمة لأنفسهم أو بما ترجمه سواهم. غير أنّ التاريخ الإسلامي لم يكن في الغالب عالية على مؤرّخي أمةٍ وبالتالي فإنّه لم يكن استمراراً للتواريخ القديمة⁽⁴⁾، بل نما في بيئة أو في فضاء إسلامي ضمن حدود التطوّر الثقافي الإسلامي، وكان استجابة لحاجات المجتمع الإسلامي. وتأثّر بالعلوم الإسلامية الأخرى وخاصّة "الحديث"

(1) أنجز أول مصنع للورق ببغداد سنة 178هـ/ 794 - 795م، أنظر جيب ضمن دائرة المعارف الإسلامية، مجلد 9، ص 189.

(2) شاكِر، المرجع السابق نفسه.

(3) أدهم علي، بعض مؤرّخي الإسلام، مكتبة نهضة، مصر، (دون تاريخ)، ص 24.

(4) كاشف سيده إسماعيل، مصادر التاريخ الإسلامي (منهج البحث فيه)، دائرة الرّائد العربي، لبنان، 1983، ص 65.

سواء كان ذلك في الفرع الأول الذي وقع الاهتمام به وهو المتعلق بالسيرة النبوية أو بالطريقة التي بواسطتها وقع التحرّي في جمع المادة اللازمة لذلك. وقد اعتبر علم التاريخ علماً مبدّلاً نظراً لأنّه في خدمة الشريعة الإسلامية بسبب اهتماماته الأولى ومنهجيّته، وبالتالي من يشغل به يثاب على ذلك⁽¹⁾. لكن التّاريخ الإسلامي بدأ يتأثّر في فترة لاحقة بما ترجم، وتخلّى بعض الشيء عن منهجيّته فيما يخصّ الإسناد والمواضيع المطروقة، ولم يعد يطلب من أجل الثواب فحسب بل أصبح مدنيّاً أيضاً يطلب لأغراض مختلفة، ونتج عن هذا التّحول تدني منزلة المؤرّخ في نظر علماء المسلمين الذين يقومون العلم حسب درجة خدمته للدين.

2 - التّأثّر بالتّقاليد الإسلاميّة : نما التّاريخ الإسلامي ونضج كجزء من الحركة الثقافيّة العربيّة الإسلاميّة التي امتدّت منذ منتصف القرن الأوّل للهجرة في دمشق، وبلغت شبابها في عهد المأمون في القرن الثالث، ووصلت قمة عطائها في القرن الرابع. وبالتالي فالتاريخ لم ينشأ وحده كزهرة في صحراء ولكنّه كان زهرة في ربيع واسع⁽²⁾، وأشدّ روابط التاريخ قوّة إنّما كانت مع علم الحديث وتفسير القرآن وعلم الأنساب واللغة. فقد ظهر من ضلعها ثمّ رفدته مع الأيّام علوم أخرى كالجغرافيا والفلك وغيرها⁽³⁾.

3 - مجالات التّاريخ الإسلامي : واكب نموّ التّاريخ الإسلامي اهتماماً خاصّاً بماضي المسلمين من بداية حياة الرّسول صلى الله عليه وسلّم وأهمّل في البداية ما عداه سواء ما تعلّق بتاريخ العرب قبل الإسلام أو بتاريخ الشّعوب المجاورة، وإن طرق بعضه فذلك لحاجة المسلمين له عند التّمهيد للكتابة. فهذه البداية المحدودة في المواضيع المطروقة تعود إلى تقوى الأوائل وانبهارهم بالإسلام وبشخصيّة الرّسول⁽⁴⁾. كما تعود إلى صعوبة الاهتمام بتاريخ العرب في الجاهليّة لغلبة التعصّب عليه وعدم وجود وحدة بين أجزائه. كما أن التاريخ الإسلامي طافح بالأعاجيب والمكاسب والانتصارات، وهذا صلب الرّغبة التي

(1) شاكر مصطفى، التّاريخ... (مرجع سابق)، ج 1، ص 86، حاطوم، المدخل...، ص 166 .

(2) شاكر، المرجع السابق نفسه.

(3) المرجع السابق، ج 1، ص 87.

(4) شاكر، المرجع السابق نفسه.

يشعر بها كل مؤرخ في إظهار مآثر قومه ومفاخرهم، بالإضافة إلى أن التاريخ الإسلامي دخل منعرجاً خاصّة منذ بعثة الرّسول ﷺ، وهذا يستحقّ أن يتخذ منطلقاً لبحوثهم، كما أن عدداً من المهتمّين بتدوين الأحداث هم من الموالى (1)، ولا يوجد رباط يشدّ هؤلاء إلى الماضي الذي يشتركون فيه مع العرب إلا في الإسلام الذي وحدّ بينهم. إلى جانب أن النشأة الدينيّة لطائفة من المؤرّخين واهتمامهم بالعلوم الإسلاميّة من حديث وتفسير وفقه وفرت لهم مادّة تاريخيّة استفادوا منها في وضع تآليفهم التاريخيّة. كما أن الاشتغال بالتاريخ بالنسبة إلى هذه الطائفة ذات النشأة الدينيّة ليس لاكتساب براعة في معرفة القصص والأخبار بل لخدمة الغرض الديني وحتى يكون علم التاريخ مطيّة لفهم الشريعة (2).

ولذلك نجد عدداً كبيراً من العلماء المسلمين يجمعون بين التّأليف في الشريعة الإسلاميّة وفي التاريخ، نذكر منهم على سبيل المثال : الطبري (ت 310هـ/923م) الذي جمع بين التاريخ (تاريخ الأمم والملوك) والتفسير، وابن كثير (ت 774هـ/1273م) هو مؤرّخ (البداية والنهاية - السيرة النبويّة) ومفسّر، والسخاوي (ت 902هـ/1497م) مؤلّف "الإعلان بالتّوبيخ لمن ذمّ التاريخ" يرى في مقدّمته أن التاريخ علم في خدمة الشريعة، وهو في الآن نفسه حافظ وفقه الخ...

لكن فيما بعد وجد اختصاص واهتمام بالتاريخ الجاهلي وتواريخ الشعوب الأخرى ودياناتهم إلى جانب المتعلّق منها بتاريخ الحقبة الإسلاميّة، وكان هذا نتيجة للنضج والتّفتح اللّذين ميّزا الثقافة الإسلاميّة التي أصبحت إلى جانب حفظ الذّكر الطيّب والاستفادة من تجارب الآخرين تهتمّ بخدمة العلم للعلم، هذا إلى جانب أغراض أخرى دفعت إلى ذلك من عصبية وشعوبيّة وتفكير إقليمي وغيره.

4 - استقلاليّة المؤرّخين المسلمين عن السّلطة : لم تكن غاليّة المؤرّخين المسلمين الأوائل خاصّة "رسميين" أي موظفين حكوميين (3)، بحيث لم تسخر الأكثرية أعلامها لتدوين ما يطلب منها. لكن قد يطلب الحكّام من

(1) نفس المرجع.

(2) حاطوم، المدخل... (مرجع سابق)، ص 166.

(3) نصار، نشأة التدوين (مرجع سابق)، ص 92-93.

العلماء في شتى أنواع المعرفة التآليف في موضوعات معينة، فعلى سبيل المثال الأسئلة التي وجهها هارون الرشيد إلى أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة نتج عنها وضع كتابه في الخراج⁽¹⁾. فهذه طريقة في التآليف واردة في تاريخ العلوم الإسلامية. وصحيح أن بعض المؤرخين كانت لهم ميول قبلية ومذهبية وغيرها، لكنهم لم يكونوا بصفة عامة في خدمة أصحاب الجاه. وهذا ما يجعل كتاباتهم لا تتم بتأثير الحكام ويكونون على درجة لا يستهان بها من التجرد⁽²⁾. وحول هذا الموضوع يلاحظ أن العلماء المسلمين لا يتقربون من الحكام بصفة عامة وإن قاموا بذلك اعتبره الآخرون نقيصة. وحتى لا يعيش هؤلاء في ظروف اقتصادية صعبة كانوا لا يعتمدون على علمهم الذي يدرسونه ويعملون على أن يكون لهم مورد اقتصادي مستقل. وقد حاول أصحاب السلطان التأثير على بعضهم لكن ذلك يتم في الغالب دون طائل، فعلى سبيل المثال رد الطبري بكرة أو صرة من المال فيها عشرة آلاف درهم إلى الوزير العباسي محمد بن عبد الله حتى لا يكون ذلك منة في عنقه فيضطر إلى المحابة⁽³⁾. ومن الأمثلة أيضا يمكن ذكر ابن مسكويه صاحب كتاب "تجارب الأمم" الذي عاش في بلاد آل بويه ولكنه ذكر نقائصهم⁽⁴⁾. وينطبق ذلك على العلماء بصفة عامة فالبيروني(ت 440 هـ)، على سبيل المثال أهدى كتابه في الفلك "القانون المسعودي" إلى السلطان الغزنوي مسعود بن محمود بن سبكتكين (ت 432هـ/1040م) فأراد السلطان مكافأته فحمل إليه ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من نقود الفضة فردّها أبو الرّيحان إليه قائلا له : إنّه إنّما يخدم العلم للعلم⁽⁵⁾، هذه هي "رسمية" العلماء التي قصدناها. وعلى كلّ يمكن أن يهدي العالم كتابا إلى الحاكم من باب تنقيفه والنصيحة له من خلال ما تضمنته الكتاب لكنه لا يلتحق ببلاطه - في الغالب - ولا يكون تحت تأثير توجيهاته.

(1) الكاشف، مصادر....، مرجع سابق، ص 64.

(2) المرجع السابق، ص 63-64.

(3) حاطوم، المدخل (مرجع سابق)، ص 169 وروزنثال، علم التاريخ، ص 78 وما بعدها.

(4) حاطوم، المدخل (مرجع سابق)، ص 170.

- كاشف، مصادر....، مرجع سابق، ص 65.

(5) حاطوم، المدخل (مرجع سابق)، ص 171.

وهناك بعض الكتب ألّفت بإيعاز من الحكّام مثل تأليف ابن إسحاق للسيرة بإيعاز من أبي جعفر المنصور على الأرجح ⁽¹⁾، والزهرى لعبد الله القسري، وابن الطقطقي لأمير الموصل عزّ الدين بن إبراهيم، وإبراهيم الصابئ لآل بويه.

وبالرغم من شهرة أصحاب هذه المؤلفات وقدرتهم العلميّة فإنّها تبعث على الشكّ والاحتراز من جانب النقاد المسلمين، هذا مع تقدير هؤلاء لهذا الصنف من العلماء، فمثلاً يقول الفقيه مكحول الشّامي (ت 112هـ) في حقّ الزّهرى "أي الرجل الزهرى لولا أنّه أفسد نفسه بصحبة الملوك" ⁽²⁾.

ولعلّ بعض المؤلّفين الذين كانوا يتقرّبون من ولاة الأمور يعلمون أنّهم بصدد تزوير الأحداث من أجل التقرّب لأصحاب الجاه، يقول إبراهيم الصّابئ (ت 384هـ/994م) صاحب كتاب "التاجي في أخبار بني بويه" لصديق له يسأله ماذا يفعل فيجيب : "أباطيل أنمّوها وأكاذيب ألّفوها" ⁽³⁾.

وكان عدد من المؤلّفين قد تحوّلوا بالفعل إلى مؤلّفين للعائلات الحاكمة والدّول، بداية من ابن القرطبي (أواخر القرن السّابع للهجرة) مؤرّخ المغول الأيلخانيين في العراق ⁽⁴⁾.

5 - توخّي الدقّة في ذكر المصدر : اعتنى المؤرّخون المسلمون الأوائل بذكر المصدر الذي استقوا منه معلوماتهم. وقد استعملوا في البداية طريقة الأسانيد المتّبعة من طرف رجال الحديث والتي ليست بالغريبة عنهم لأنّ معظمهم إلى جانب نشاطهم الدّينيّة واهتمامهم برواية الحديث اشتغلوا بالتأريخ. ومنهجية الإسناد التي استعملت تتمثّل في أنّه للوثوق من أمانة الرّاوي (مصدر الخبر) لجأوا إلى نفس الوسائل التي اعتمدها علماء الحديث في تجريح وتعديل رواة الحديث. بحيث هناك قائمة بأسماء رواة الخبر كما في الحديث فيها سند

(1) شاكر، التاريخ، مرجع سابق، ج 1، ص 90.

(2) زيدان جرجي، تاريخ الثمن، مرجع سابق، ج 3، ص 110.

- حاطوم، المدخل (مرجع سابق)، ص 168.

(3) شاكر، مرجع سابق، ج 1، ص 89.

- حاطوم، (مرجع سابق)، ص 167.

(4) شاكر، المرجع السابق نفسه، ج 1، ص 89.

متّصل يذكر فيه أسماء رواة بتسلسل حتى يقع الوصول إلى اسم الرّاوي الذي هو في الغالب من صحابة الرّسول ﷺ. وهناك تفاصيل في سلسلة السّند حيث يوجد سند منقطع وهو الذي سقط من رواته الذين أخذوا عن بعضهم - راو واحد قبل الصحابي. ويوجد سند معلق وهو ما حذف مبتدأ سنده وحديث معضل سقط من سنده اثنان أو أكثر في موضوع واحد من الأوّل أو الوسط أو النهاية (1). ولدراسة الخبر هناك وجهان : سند ومتن. وإن وقع التّركيز حسب زعم البعض على السّند بدعوى أن الصّادق لا يقول إلّا الصّديق. والواقع أنّه مع التحري في صدق الرّاوي توجد شروط صارمة من أجل قبول المتن (النصّ) أو ردّه (2). لقد ذكرنا هذه التّفاصيل حول المصدر أو السّند لأنّ المحدثين رأوا في مرحلة أن الخبر لا يمكن قبوله إلّا إذا اتّبع طريقتهم.

وبالرّغم من كلّ ما ذكر حول وجود من وضع الأخبار أو شوّها خدمة لأغراض معيّنة، فإنّ صحّة عدد من المحتثين والمؤرّخين المسلمين - الذين ساروا على منوالهم - تبلغ مرتبة سامية وتجعل كتبهم ذات نفع عظيم للبشريّة كما يقول مرغليوث (بالنسبة إلى التّاريخ) (3). ويمضي هذا الأخير قائلا : "ومن النّادر أن يخبر المؤرّخ الإغريقي أو الرّوماني بمصدر أخباره" (4).

إنّ أهميّة طريقة الإسناد تظهر صحتّها بالنسبة للأخبار المتّصلة بسيرة الرّسول صلى الله عليه وسلّم وحوادث الدّولة الإسلاميّة في تاريخها الأوّل، لكنّها عجزت عن ضمان ذلك في أخبار القدماء وعرب البيئّة العربيّة قبل الإسلام وحتى في القسم الأوّل من السّيرة. وتعتبر هذه الموضوعات الأخيرة أضعف كتب التّاريخ عند العرب (5).

(1) أنظر مثلا : عتر نور الدين، منهج النّقْد في علوم الحديث، دار الفكر، بيروت، (طبعة ثالثة)، 1401هـ/1981م، من ص367 إلى ص390.

(2) صبحي أحمد محمود، في فلسفة التّاريخ، مؤسسة الثّقافة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1975، ص 323.

(3) مرغليوث، دراسات عن المؤرّخين العرب (ترجمة حسين نصّار)، كليّة الآداب، جامعة القاهرة، (دون تاريخ)، ص 31-33.

(4) مرغليوث، المرجع السّابق.

(5) هرنشو، علم التّاريخ (مرجع سابق)، ص 43-44.

وبتقدّم الكتابة التاريخية ابتعد فريق من المؤرّخين المسلمين عن طريق الإسناد وتسلسل الرواة واكتفوا بإيراد الأخبار غير مسبقة بمصادرها (اليقوي: ت 284هـ/897م والمسعودي: ت 346هـ/957م)، ولو أنّهم يشيرون إلى مصادر مادّتهم في مقدّمات كتبهم مع دراستها دراسة نقدية (كما فعل المسعودي في مقدّمة كتابه: مروج الذهب) ⁽¹⁾. ولعلّ عذر المتأخّرين في التّخلي عن طريقة الإسناد أنّها مرهقة لهم وللقرّاء معا.

ولم يعتمد التاريخ الإسلامي على الرواية الشّفوية وحدها بل يبدو أن وثائق وسجّلات وأسفاراً وكتباً أصليّة اعتمدت كمراجع في التدوين. فالدقة في الأخبار الواردة في العصر الإسلامي الأوّل توحى بوجود وثائق مكتوبة، استعملت إلى جانب ما هو معروف من وجود وثائق في أديرة الحيرة اعتمد عليها ابن الكلبي (ت 146هـ/763م) وغيره، إلى جانب أن هناك ما يدلّ على ترجمة التّوراة والإنجيل للعربيّة في عصور الفتوح ⁽²⁾. كما أن المؤرّخين المسلمين اعتمدوا على كتابات كانت موجودة في العصر الإسلامي الأوّل ثمّ اختفت. وفي فترة متأخّرة من تدوين التاريخ، صارت الوثائق الرّسميّة والصّلات الشخصية وما يدور في دوائر البلاط من أحاديث وغيرها من المصادر التي أصبح المؤرّخون يستقون منها مادّة كتبهم ⁽³⁾.

6 - اعتماد تقويم إسلامي أصيل : إنّ التقويم غير القارّ والمتعلّق بحوادث عابرة كانت من العوامل التي أدخلت تاريخ البيئة العربيّة في التّفكك وعدم الاستمرارية، لكن هذه النقيصة وقع تجاوزها عندما استحدث الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطّاب التقويم الهجري، في إطار الإصلاحات الماليّة والإداريّة التي قام بها هذا الخليفة. ففي السّنة السّابعة عشرة للهجرة أوجد هذا التقويم الذي دعت إليه الحاجة، ومنها تاريخ الرّسائل والسجّلات في الدّواوين التي أحدثت في هذا العهد. وكامتداد لتفكيره الأصيل أراد عمر أن يكون هذا

(1) سالم السيّد عبد العزيز، التاريخ... (مرجع سابق)، ص 75 - 77.

(2) شاكر مصطفى، تاريخ، مرجع سابق، 88/1.

(3) تحليل نصوص تاريخيّة تتعلّق بتاريخ العرب والإسلام من كتب العرب والمسلمين، جامعة دمشق، قسم التاريخ، 1962 - 1963، ص 47.

التَّقْوِيم نابعاً من تاريخ الإسلام ومن ظروف هذه البيئة بعيداً عن تقليد الرُّوم أو الفرس وغيرهم في ذلك. فوقع الاختيار على هجرة المسلمين بقيادة الرّسول صلى الله عليه وسلّم إلى المدينة كبداية لهذا التَّقْوِيم. باعتبارها تمثّل نقطة حاسمة ومنعرجاً كان له تأثير عميق في مستقبل الدّعوة الإسلاميّة وتنظيم الجماعة الإسلاميّة⁽¹⁾. وهذا التحديد يعبرّ دون شك عن وعي تاريخي وحضاري.

وعندما أخذ المؤرّخون المسلمون في اعتماد التَّقْوِيم الهجري، أظهروا الكثير من الدّقة في تحديد الفترة الزّمنيّة التي وقع فيها الحدث ذاكرين اليوم والشّهر والسّنة. وهذا التّوقيت الدّقيق هو ضابط انفرد به المؤرّخون المسلمون عن نظائرهم من إغريق ولم تعرفه أوروبا إلّا في القرن السادس عشر وبصفة أدقّ منذ سنة 1597⁽²⁾. غير أنّ هذا التّوقيت ابتداءً عند المؤرّخين المسلمين ضعيفاً، ولعلّ هذا شأن تجربة وممارسة كلّ جديد، فحوادث الفتح الأولى - حسب العبادي⁽³⁾ - وقع في توقيتها خلط شديد واختلاف كثير، ثمّ توجّه إلى الدّقة والصّحة على مرّ الزّمن بتعدّد طرق الخبر الواحد وبالأخذ عن المصادر الرّسميّة⁽⁴⁾. ويذكر العبادي أنّ التَّقْوِيم يظهر دقيّقا ومتطوّراً عند الهيثم بن عدي (ت 207هـ/822م).

7 - اعتماد منهج متميّز في كتابة التاريخ : تميّز المؤرّخون المسلمون بالسّير في كتاباتهم حسب منهجين :

أ - التاريخ الحولي أو حسب السنين : ويتمثّل ذلك في أن مختلف الحوادث تجمع في كلّ سنة حسب وقوعها ويربط بين السّابقة واللاحقة بكلمة

(1) حول هذا الاختيار في التَّقْوِيم وما قابله عند الأوروبيين أنظر : البيروني، الآثار الباقيّة عن القرون الخالّية، ليزي، 1823م، ص 29-30.

السخاوي، الإعلان... (مصدر سابق)، ص 79.

- كحالة، التاريخ والجغرافية (مرجع سابق)، ص 5.

(2) مرغليوث، دراسات عن المؤرّخين العرب، ص 29.

- هرنشو - العبادي - علم التاريخ (مرجع سابق)، ص 44.

(3) المرجع السّابق نفسه.

(4) هرنشو، علم التاريخ، (مرجع سابق)، ص 44.

"وفيها"، فإذا انتهت حوادث سنة وقع الانتقال إلى السنة الموالية ويشرع في الحديث عنها بعبارة : ثم دخلت سنة كذا، أو ثم جاء في سنة كذا.

لقد ساد هذا المنهج عدة مؤلفات تاريخية إسلامية، وعيبه أنه يمزق سياق الحادثة التاريخية الواحدة التي تمتد على عدد السنين. وقد يكون هذا التاريخ الحولي من مؤثرات الشعوب المجاورة. وهو ما ترفضه الدكتورة كاشف⁽¹⁾ باعتبار أن التاريخ الإسلامي نما في بيئة إسلامية ولم يتأثر بمن حوله، وربما أخذ عن اليمنيين. وأول من استعمل منهج التاريخ الحولي هو الهيثم بن عدي في كتاب "التاريخ على السنين"، وتبعه في هذه الطريقة كل من الطبري (ت 310هـ-923م) ومسكويه (ت 421هـ/1030م) والذهبي (ت 798هـ/1348م) وابن الأثير (ت 630هـ/1233م)، الذي حاول أن يجدد في هذه الطريقة بجمع أخبار الحادثة الواحدة المهمة في سنة واحدة تحاشياً لتمزيقها، ولكنه لم ينجح في ذلك نجاحاً كاملاً؛ فتورة الزنج التي دامت أربع عشرة سنة وردت لديه ممزقة⁽²⁾. ثم طرأ تطور على كتابة التاريخ الحولي في العصور الإسلامية المتأخرة عندما زادت المادة التاريخية وذلك بتقسيم الحوادث حسب القرون، ولو أن هذه الطريقة لها علاقة بالطبقات والتراجم مثل "تاريخ الإسلام" للحافظ الذهبي و"الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني و"الضوء اللامع في رجال القرن التاسع" للسخاوي. وهذه الكتب مرتبة إما حسب السنين أو حسب حروف الهجاء.

ب - التاريخ حسب الموضوعات : وهو التزام المؤرخ طريقة التأريخ إما للدول أو لعهود الخلفاء والحكام أو الأسر والطبقات.

• التاريخ للدول والحكام والأسر : كان البعض يؤثر الكتابة التاريخية حسب الأسر الحاكمة أو الدول أو العهود. فالبعض كتب في تاريخ الدول والأسر الحاكمة مثل أبي حنيفة الدينوري (ت 282 هـ/795م) في "الأخبار الطوال" وأبي شامة (ت 665 هـ/1276م) في "الرؤسيتين في أخبار الدولتين"،

(1) أنظر : حول الصور الحولية : روزنتال، علم التاريخ (مرجع سابق)، ص 101 وما بعدها؛ كاشف، مصادر التاريخ (مرجع سابق)، ص 65.

(2) السيد سالم، التاريخ والمؤرخون (مرجع سابق)، ص 84.

وابن واصل(ت 697 هـ/1298م) في "مفرّج الكرب في أخبار بني أيوب"، وأبي بكر الصّدفي في "الأنوار الجليّة في أخبار الدّولة المرابطيّة"، ولسان الدّين بن الخطيب في "اللمحة البدريّة في الدّولة النصريّة"، وأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر (ت 807 هـ/1404م) في "روضة النسرّين في دولة بني مرّين" وابن خلدون (ت 808 هـ/1406م) في "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر..."، والبعض كتب للخلفاء والملوك والسلاطين التّابعين لدولة معيّنة مثل : ابن زولاق (ت 387 هـ/997 م) في "سيرة الإخشيد"، والبيذق في "أخبار المهدي بن تومرت"، وابن شدّاد (ت 632 هـ/1234 م) في "سيرة صلاح الدّين"، و"اتعاظ الحنفا" لتقي الدّين المقرّيزي (ت 845 هـ/1441 م). وفي هذه الطريفة هناك إبراز للمسائل الإداريّة والأخلاقيّة للحاكم، ولعلّ هذا - حسب السيّد سالم⁽¹⁾ - كان بفعل تأثير الكتب الفارسيّة التي توكّد هذه النّاحية. وكان يلاحظ أن عددا من الذين كتبوا في الدّول والعهود والحكّام مثل ابن عذاري المراكشي (نهاية القرن 7 هـ/القرن 13 م) في "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" أو المقرّيزي في "اتعاظ الحنفا" وغيرهما، كانوا يذكرون صفات الحاكم الخلفيّة والخلفيّة ويضعون قوائم لموظّفيه وأولاده ونسائه أحيانا.

• **التاريخ حسب الطبقات :** وهذا النّوع من التّأليف إسلامي أصيل⁽²⁾ تميّز به المسلمون وبرزوا فيه، وقد جاء نتيجة طبيعيّة لصحابة الرّسول صلى الله عليه وسلّم. وبسبب الاهتمام بالطبقات ارتبط التاريخ بعلم الحديث والعلوم الدّينيّة بصفة عامّة ارتباطا وثيقا "فالطبقات الكبرى" لابن سعد (ت 230 هـ / 845 م) هي تراجم لشخصيّات محدّثة هامّة، وهناك "طبقات الشّافعيّة" لتاج الدّين السّبكي، و"طبقات الحنابلة" لأبي يعلى (ت 307 هـ/919 م).

ثمّ تحوّل مؤرّخو الطبقات عن تصنيف الميادين الدّينيّة إلى غيرها مثل "طبقات الشّعراء" لمحمّد بن سالم الجمحي (ت 232 هـ/847 م)⁽³⁾، و"طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة (ت 616 هـ/1219 م).

(1) السيّد سالم، (مرجع سابق)، ص 95.

(2) المرجع السابق نفسه.

(3) كحالة عمر، التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلاميّة، المطبعة التّعاونيّة، دمشق، 1972، ص 64 وما بعدها.

• التاريخ حسب الأنساب : كانت القبيلة هي كل شيء بالنسبة إلى الفرد في البيئة العربية قبل الإسلام، وتغنى العربي في هذه الفترة وافتخر بانتسابه إلى قبيلة معينة. ثم جاء الإسلام لتحلّ الأخوة الدينية محلّ الرابطة القبلية. لكن هذه الظاهرة استمرت تعبر عن نفسها، فأخذت القبائل تتمايز أثناء المعارك وتفتخر ببطولاتها⁽¹⁾. وعاش بنو أمية عيشة عربية يقاتلون بالعصبية، وانقسم المجتمع في فترة من عهد الأمويين إلى عرب وموالي، وحدثت عصبية داخل القبائل العربية نفسها، فكان كل هذا مدعاة لحفظ الأنساب. وفي العهد العباسي ظهرت الشعوبية التي تبرز مثالب العرب، فألفت كتب كثيرة تتعلق بالأنساب، ومن أهم هذه الأنساب التي نعثر عليها بكثرة هي الأسبقية في الإسلام، والقراية من الرسول صلى الله عليه وسلم دمويًا أو بمصاحبته. وقد أصبح فيما بعد للقرشيين والعلويين وأبناء الصحابة الأولين مكانة كبيرة في الإسلام، فظهروا في صورة أرسقراطية عربية في الإسلام⁽²⁾. فساعد ذلك على الاهتمام بدراسة الأنساب بصفة عامة وخاصة نسب قرش التي منها الرسول وعدد من الصحابة. ونجد المؤلفات التاريخية تورد قائمة طويلة بأسماء الأجواد في ما أمكن ذلك وكثيرا ما بحثت في نسب الأمراء والحكام.

وهكذا سادت النظرية النسبية في العلاقات الإنسانية باعتبارها قوة محرّكة في التاريخ، وانتقل الاهتمام بالنسب إلى كتب التّراجم⁽³⁾. وهكذا عبرت هذه النظرية عن مجتمع اختلط أفراده بسبب عامل الدين خاصة، لكنّه استمرّ يميل إلى التّمايز ويحمله الحنين إلى جذور يرى أنّها مدعاة للافتخار. ويذكر السيّد سالم⁽⁴⁾ أن الكتابة في الأنساب في بلاد المغرب والأندلس وجدت أرضا خصبة فاقت الاهتمام بكلّ العلوم، ويستعرض أسماء المؤلّفين في هذا الميدان كعبد الملك بن حبيب (ت 238 هـ/853 م) في كتابيه "طبقات الفقهاء" و"طبقات محدّثين"، وأحمد الرّازي (ت 322 هـ/934 م)، ومحمد بن حزم القرطبي (ت 456 هـ/1064 م) وابن عبد البرّ (ت 463 هـ/1071 م).

(1) المرجع السابق نفسه، ص 72.

(2) السيّد سالم، التاريخ... (مرجع سابق)، ص 95.

(3) المرجع السابق نفسه.

(4) السيّد سالم، التاريخ... (مرجع سابق)، ص 95.

ويعلق السيد سالم على هذه الظاهرة بأنها تعود إلى تعقد المجتمع الأندلسي الذي أصبح يتكون من أخلاط بشرية غير منظمة مما ترتب عليه قيام طوائف جنسية مختلفة تقوم على العنصرية الجنسية أو العصبية كالعرب والبربر والمولدين⁽¹⁾.

8 - تنوع المادة التاريخية المعبرة عن حاجات المجتمع : لقد تميّزت المادة التاريخية عند المسلمين بالغزارة والتنوّع⁽²⁾، ووقع التدرج فيها على مقتضى الأحوال وحسب الحاجة، لذلك انبهر المسلمون بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فتناقلوا أخباره ثم عادوا إليه بشكل جذّي فيما بعد عندما اهتموا بتفسير القرآن وجمع الأحاديث حيث احتاجوا إلى معرفة الأحوال التي نزلت فيها الآيات أو قيلت فيها الأحاديث فعمدوا إلى جمع السيرة النبوية لأنها شاملة لكل ذلك فتناقلوها مدة ثم دوّوها. وللتحقّق من صحة الأحاديث والتفريق بين ضعيفها وصحيحها جرّهم ذلك إلى النّظر في رواية تلك الأسانيد وتراجهم والإحاطة بأحوالهم (عدول، ثقات، مطعون في رواياتهم، أو رواياتهم مردودة). ثم وقع تقسيم رواية كلّ فنّ مشغل به إلى طبقات فتألّفت من ذلك كتب عرفت باسم "الطبقات".

وحينما اشتغل المسلمون في فرض الخراج والجزية⁽³⁾ على البلدان التي دخلها المسلمون فاتحين، وقع الاضطراب إلى تدوين أخبار الفتح⁽⁴⁾ (فتوح الشام، فتوح مصر والمغرب، فتوح البلدان...). ولمّا استبدّ بعض الخلفاء وانقسم الناس إلى فرق ومذاهب، كثر الحديث عن الخلفاء الرّاشدين وعدلهم، ووقع التّعريض إلى الفتن التي عرفها المسلمون بتحديد دور كلّ الأطراف المشاركة فيها، كما ظهرت كتب تدافع عن جهات معينة وتبرز محاسنها وتحطّ من قيمة الأخرى (عصبية، أنساب، شعوبية...). وهذا النوع من التّأليف يمثّل العالمية والنضج والتّفنّن التي أصبح عليها المؤرّخون المسلمون بداية من القرن الثالث للهجرة.

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) حاجي خليفة، كشف... (مرجع سابق)، ج 1، ص 271.

(3) هرنشو، علم التاريخ (مرجع سابق)، ص 35 وما بعدها.

(4) زيدان جورجي، تاريخ التمدّن (مرجع سابق)، 99/3 وما بعدها.

وعندما ضعفت الخلافة وانقسمت البلاد الإسلامية ظهرت التواريخ المحلية التي تعبّر عن المفاخر الإقليمية ومعها ارتباط المؤرّخ بإقليمه واعتزازه بوطنه. وهكذا قابلت اللامركزية السياسية لا مركزية ثقافية تنافست فيها المدن والدويلات (1).

ومع هذه الإقليمية ظهر تاريخ محلي دنيوي (2) وتاريخ محلي ديني (3). وقد ازدهرت كتب الطبقات عند المسلمين، ورتّبت حسب حروف الهجاء (4) أو حسب العصور أو حسب مذاهب أصحابها أو حسب تاريخ علماء كلّ بلد وانتقلت من الإيجاز إلى التّوسّع (5). ويعثر على كثير من الأخبار التاريخية والتّراجم في كتب الأدب (الأغاني، العقد الفريد، البيان، الكشكول...). ويعتبر المسلمون روّاداً في هذا النوع من التّأليف.

ويضاف إلى ما اشتغل به المسلمون التاريخ المعاصر لهم والمذكرات، وهو أن يكتب المؤرّخ عن الدولة وخاصة الحاكم الذي عاصره...

ونختم الحديث عن هذه الغزارة والتّنوّع في المادّة التاريخية بخلاصة لما أورده العبادي في هذا الباب (6) : إنّ اللامركزية السياسية أدّت إلى لا مركزية أدبية فنافست بغداد قرطبة والقيروان ومصر وحلب وأصفهان... وكثر العلماء كثرة كبيرة كلّ ذلك أثر في كتابة التاريخ يتّضح ذلك في كثرة ما ظهر منه. وبعد تفرّق العالم الإسلامي وهنت قواه فطمعت فيه قوى وهاجمته متمثلة في الروم والصليبيين والتتار والأسبان فأدّت إلى تدمير بعض أجزائه وخروج البعض عن نفوذ المسلمين، وبذلك دخل العالم الإسلامي في طور جديد من تاريخه يختلف عن الطّور السّابق فانعكس ذلك على كتابة التاريخ. فتوجّه البعض إلى دراسة فلسفية تتعلّق بعلى الحوادث وأسباب قيام الدول وسقوطها ومظاهر العمران وأصول الاجتماع. وقد مثّل هذه المدرسة ابن خلدون. ثمّ وقع

(1) هرنشو، (مرجع سابق)، ص 41 وما بعدها.

(2) السيّد سالم، التاريخ... (مرجع سابق)، ص 107.

(3) المرجع السّابق، ص 119.

(4) زيدان جورجي، تاريخ التّمذّن (مرجع سابق)، 107/3.

(5) كحالة، التاريخ والجغرافية (مرجع سابق)، ص 67.

(6) هرنشو، علم التاريخ، ص 41 وما بعدها (مرجع سابق).

النّظر إلى التّاريخ على أنّه يمكن أن يكون هو نفسه محلاً للبحث والتّاريخ، فوضع لذلك الصّقدي مقدّمة كتابه "الوافي بالوفيات"، والسّخاوي "الإعلان بالتّوبّيح لمن ذمّ التّاريخ".

9 - التعليل والتفسير والحكم : التعليل هو ذكر السبب الذي يكمن وراء حادث معيّن، وقد يهتمّ التعليل بحادثة واحدة منفردة أو مجموعة حوادث، بينما التفسير هو ما يسمّى بفلسفة التاريخ ويتعلّق بإسناد تفسير للأحداث ككل. والحكم هو تقييم أو تقويم عمل الفرد أو الجماعة في الماضي بإطلاق حكم لهم أو ضدّهم بناء على سيرتهم أو ما اتّخذوه من قرارات... هذه القضايا ظهرت في الإسلام مع ما ورد في القرآن الكريم وظهرت في فترة مبكّرة من التّدوين التّاريخي عند المسلمين. فعندما تكوّنت بعد وصول الأمويين إلى الحكم معارضة ضدّهم ترفض هذا الملك العضوض وتراه حكماً غير شرعيّ انحرف بالحكومة الإسلاميّة، فكان جوابهم نشر فكرة الجبر على أساس أنّ وصولهم إلى الحكم هو قضاء وقدر من الله. ويرون بالتّالي في سلطانهم أمراً إلهيّاً فيه مظاهر الجبر الإلهي وإرادة الله الغالبة لكلّ شيء. ونعثر على هذا التّوجه فيما رَوّجه عوانة ابن الحكم (ت 147هـ/764 م) في دفاعه عن الأمويين، ويظهر ذلك من نقاش دار بين يزيد بن معاوية (ت 64 هـ/683 م) وعليّ بن الحسين، بعد موقعة كربلاء. يقول يزيد لعليّ: "يا عليّ أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقّي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت" (1)...

ونعثر بالمقابل على حريّة الإرادة التي يروّج لها حزب المعارضة للأمويين والقول بمسؤوليّة البشر عمّا يقترفونه، نجد ذلك واضحاً في بعض ما كتبه أبو مخنف (2)، وخاصّة ما كتبه حول حركتي الحسين والتّوابين (3). وقد تهجّم المؤلّفون ذوو الميول الأمويّة على العلويين ونعتوهم بالخوارج على أئمّة

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار سويدان، لبنان، (دون تاريخ) 461/5. ويؤكّد فكرة الاختيار الإلهي لبني أميّة الشاعر الأصوص حيث يقول : سليمان إذ ولاك ربك حكماً وسلطاناً فاحكم إذا قلت بالعدل.

(2) شاكر مصطفى، التاريخ، (مرجع سابق)، ج1، ص 91.

(3) المرجع السّابق نفسه.

العدل وأنهم شقّوا عصا الطاعة وأخرجوا أيديهم من الجماعة⁽¹⁾. أمّا حزب بني أميّة فهو حزب الدين والنظام وأهل السنّة والجماعة ويزيد "إمام المسلمين" وعبد الملك "إمام الإسلام" و"أمين الله"⁽²⁾. وهذه الألقاب الفخريّة المسندة إلى الأمويين، وهذا التّهجّم على الخصوم ووصفهم بنعوت معيّنة هو ولا شكّ باب الحكم على الأحداث. ثمّ ورث العباسيون تفسير الأحداث بالقضاء والقدرة الإلهيّة التي أرادت اختيار العباسيين لحكم المسلمين مع تأكيد أوسع على الصفة الدنيّة لآل الرّسول ﷺ وعلى حقّ الإمامة لبني العباس من ناحيّة القرابة والجماعة⁽³⁾.

لكن هذا العنصر بدا في مؤلّفات المؤرّخين المسلمين على شكل لمحات ونجده شبه غائب بصفة عامّة. ولعلّ أهمّ من أعطى مساحة في مؤلفاته للتفسير أو فلسفة التاريخ هو ابن خلدون في "المقدّمّة"، ولو أن هذا التفسير للأحداث لا يمكن أن يسند إليه عنوان واحد (العصبية، الدورات الحضاريّة، الصّراع بين البدو والحضر) لكنّه يبقى التفسير الهام والجدي في التاريخ الإسلامي وإن وضعه ابن خلدون منعزلا عن الأحداث التي يفرد لها كتابا خاصا وهو المعروف بكتاب "العبر".

أمّا المؤرّخون المسلمون فكان عليهم في بداية اعتنائهم بتسجيل الأحداث تقديم المادّة والتّثبت من الشّهادة والتركيز على حملة الأخبار لا على الأخبار نفسها⁽⁴⁾. فالموضوعيّة انصبّت لديهم على الاحترام الزائد للشّهادة فأبعدتهم عن المناقشة المباشرة والكاملة للمحتوى الذي تحمله الرواية التاريخيّة. لكن عدم التفسير والحكم بشكل واضح لا يعنى غيابه تماما، فاختيار رواية دون أخرى يتضمّن بشكل محدود الحكم والتفسير وإن لم يقع التّصريح به. ولعلّ عذر مؤرّخيننا أن الصراعات الموجودة على السّاحة الإسلاميّة بين التيارات والفرق المختلفة تجعل من يقوم بإبداء الرأي بالحكم والتفسير يعتبر بعيدا عن الموضوعيّة ومنهما يتهم بالميل إلى

(1) المرجع السابق، نقلا عن حمزة الأصبهاني في "تاريخ ملوك الأرض".

(2) شاكر مصطفى، (نفس المرجع)، 9/1، نقلا عن البلاذري في "أنساب الأشراف".

(3) المرجع السابق، 92/1.

(4) المرجع السابق، 457/1.

جهة دون أخرى. ولذلك حاول الجنّيون منهم جمع المعلومات المختلفة المشارب وتركوا للقارئ حرية اختيار رواية على أخرى والقيام بعمليات التعليل والحكم.

الخاتمة :

لم يسلم المؤرّخون المسلمون، بالرغم ممّا بذلوه وأنجزوه، من الانتقادات الموجّهة إليهم، فقد عاب عليهم النقاد اهتمامهم في تأليفهم بالأمراء والحروب والسياسة في الغالب وأهمّلوا الاقتصاد والآداب والعلوم والطبقات الشعبيّة إلّا بمقدار محدود، كما عيب عليهم قلّة حكمهم على الأحداث وتعليلهم لها وعدم نفاذهم إلى خلفياتها وأسبابها البعيدة، حيث انصبّ مجهودهم على الوصف، وتركوا النقد والتقرير جانبا (1).

كما انتقدوا لأنّهم نقلوا الروايات السابقة المكتوبة والشفويّة مسجلين لها دون أن يفكروا في تنقيتها، لأنّ الأخبار - كما ذكر ابن خلدون (2) - " إذا اعتمد فيها مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالغائب، فربّما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصّدق". ويقدم ابن خلدون أمثلة على هذا الخطأ الذي وقع فيه المؤرّخون المسلمون فيما يخصّ عدد الجيوش وإحصاء الأموال (3). كما عاب عليهم البعد عن الواقعيّة في سرد الحقائق التاريخيّة، والاعتماد على الخيال إلى حدّ تشويه الخبر وتزييفه (4).

لكن مهما قيل في ضعف طريقة هؤلاء المؤرّخين المسلمين من ناحية علميّة، فيكفيهم أنّهم خلّفوا ثروة تاريخيّة ضخمة ومتنوّعة، ومدّوا حدود البحث العلمي، وسافروا في طلب العلم، وتنقّلوا لجمع المعلومات ومشاهدة مسرح الأحداث. كما أنّهم كانوا السابقين إلى ضبط الحوادث بالإسناد. وذكر السند هو

(1) هرنشو، علم التاريخ، ص 45، (مرجع سابق)، وكذلك زيدان جورجي، تاريخ التمدّن (مرجع سابق)، ج 2، ص 110.

(2) ابن خلدون عبد الرّحمان، المقمّة، دار الكتاب العربي، بيروت، (دون تاريخ)، ص 9.

(3) المصدر السابق، ص 10 وما بعدها.

(4) المصدر السابق، ص 9 إلى 41.

مثل ذكر المؤرّخ المعاصر للمصادر التي عاد إليها في كتاباته لأنّه يسأل من طرف القارئ : من أين لك هذا ؟.

كما أنّ المؤرّخين المسلمين ذكروا التوقييت الدقيق لهذه الحوادث، وكانوا أوّل من كتب في فلسفة التاريخ والاجتماع، وخدموا العلم للعلم، وحاولوا جهد طاقتهم العمل بما يمليه أوّل واجب الباحث وهو الصدق في القول والنزاهة في الحكم (1).

وخلاصة القول إنّ المؤرّخين المسلمين كانت لهم طوال فترة العصور الوسطى منهجيتهم الخاصة في كتابة التاريخ التي تراوحت بين الرواية الشفوية القديمة وفلسفة التاريخ، حيث نما التاريخ عند العرب وتفرّع وازدهر. ولما نضب معينه بانحلال الحياة السياسيّة العامّة المستقرّة جرى عليه ما يجري على الأحياء من حكم البلاء والفناء متى انقطعت مادة حياتها" (2).

(1) هرنشو، علم التاريخ، (مرجع سابق)، ص45.

(2) هذا تعليق من العبادي في مرجع هرنشو، علم التاريخ، مرجع سابق، ص41.